مجلة الاقتصاد الإسلامي العالمية

Global Islamic Economics Magazine

مجلة شهرية علمية تعنى بشؤون الاقتصاد الإسلامي وعلومه تصدر إلكترونيًا؛ وهي وقف لوجه الله تعالى

العدد / 97 / ذو القعدة 1441 هـ الموافق حزيران / يونيو 2020 م

خطة رشد صلح الحديبية

(لا يَسْأَلُونِي خُطَّةً يُعَظِّمُونَ فِيهَا حُرُمَاتِ اللهِ إِلَّا أَعْطَيْتُهُمْ إِيَّاهَا)

د. سامر مظهر قنطقجي

رئيس تحرير مجلة الاقتصاد الإسلامي العالمية

عرف الفكر الاستراتيجي الحديث أبعاداً مختلفة، على المستوى الفردي والمؤسسي والدولي، وسعت الدول لتبني رؤى تتناسب وذلك الفكر، واختارت سبلاً متعددة للوصول لتحقيق أهدافها. ولا يخرج عن ذلك تنظير جمهورية أفلاطون أو المدينة الفاضلة لأرسطو، أو قيام حضارات كحضارة ما بين النهرين والكنعانية والفرعونية، أو قيام اتحادات دولية؛ كالاتحاد السوفيتي والولايات الأمريكية، والأمثلة شاهدة، وقد شاب كل استراتيجية أخطاء خلال قيامها أو خلال مسيرتها.

تلك الحضارات ظهرت نتيجة جهود مجموعات من البشر بغية تطوير ظروف حياتهم، منها ما كانت جهوداً مقصودة ومنها لم يكن كذلك، ارتبط أثرها بالتاريخ البشري وشكل مخزوناً معرفياً ساهم في قيام حضارات أخرى اندثر أغلبها، وذلك بسبب سمة الصراع الدامي على تلك الحركة التاريخية، وقد انفرد ابن خلدون في بيان تلك الحركة مقدماً نموذجه في نشوئها وموتها.

لكن أن يأتي رجل عاش في صحراء ما عرفت إلا التجارة؛ ليقيم أمةً امتدت أطول فترة عرفها التاريخ ما زالت قائمة وتتوسع، ما خالطتها أمة أو قومية أو حضارة إلا امتزجت بها وتأثرت بمعارفها؛ فهذا حدث فريد في الدنيا، تجاوز مفهوم الاستراتيجيات السائد، بقوة ناعمة أساسها بناء الإنسان الصحيح، وتحقيق العدل بين بني البشر جميعهم.

يعتبر حدث صلح الحديبية بوابة انطلاق أمة الإسلام إلى الكون كله، فبعدما أسس صلى الله عليه وسلم الإنسان المسلم وبنى المجتمع الإسلامي، أرسى فيه كل ما يلزمه من أبعاد بقائه وخلوده في هذه الدنيا، ثم جاء صلح الحديبية؛ الذي سماه عروة بن مسعود (بخطة رشد)، وعروة هو زعيم ثقيف وأحد وجوه العرب، وله الكثير من المآثر والأخبار، وهو عظيم القريتين، وهو سياسي محنك قد جالس ملوك الأرض في حينه ككسرى وقيصر والنجاشي، وكان المفاوض المتمرس عن قريش، لم يترك أسلوباً من أساليب التفاوض والحنكة والذكاء إلا واستخدمه، لكن رسول البشرية صلى الله عليه وسلم كان أكثر حنكة منه ومن جميع المفاوضين الآخرين الذين أرسلتهم قريش للسيطرة على ذلك الحدث.

سنستعرض هذا الحدث الفيصل في حياة أمة الإسلام؛ بوصفه خطة استراتيجية، نُتبعها بتحليل استراتيجي؛ لنتعرف بعض جوانبه؛ فهو مثال يحتذى لا يجب أن يغيب عن أذهان المخططين والمفاوضين.

الغاية: تعظيم حرمات الله، وهذا هو الغرض الذي لأجله أقدم رسول الله صلى الله عليه وسلم على عقد صلح الحديبية، وقد غاب هذا القصد عن أغلب المسلمين المشاركين في تلك الرحلة ومنهم عمر رضي الله عنه. كما غابت هذه الغاية عن كل النماذج التاريخية التي عرفتها الدنيا، وفيها يكمن سرّ ديمومة أمة الإسلام في حالات ضعفها وقوتها وسيبقى ذلك حتى قيام الساعة.

الهدف الأساسي (الاستراتيجي): فتح مكة واستئصال عبادة غير الله تعالى.

الهدف المرحلي (التكتيكي): عقد إتفاق يتضمن اعترافًا بالمسلمين ككيان سياسي واجتماعي قائم.

مهندس الخطة وواضعها: محمدٌ رسول الله صلى الله عليه وسلم، وقد سميت خطته (خطة رشد)؛ أي خطة هدى واستقامة. والخطة لغة هي: المنهج، والطريقة، والأُسلوب، أما الخطة إداريًا فهي: تحديد مسبق لمجموعة أعمال مرغوب بتنفيذها، تحقق بالنتيجة أهدافًا منشودة، وتكون الخطة مرنة إذا أريد منها استيعاب المتغيرات الطارئة، ويُعبر عنها بشكل كمي، بغية إحكام الرقابة على تنفيذ الخطة. أما الرشيد حسب تفسير البغوي؛ في قوله تعالى: (أَلَيْسَ مِنكُمْ رَجُلٌ رَّشِيدٌ)؛ أي رجل صالح سديد، قال عكرمة: رجل يقول لا إله إلا الله، وقال ابن إسحاق: رجل يأمر بالمعروف وينهى عن المنكر.

أحداث ومتغيرات حصلت خلال الرحلة كادت أن تشوش إنجاز الخطة: يجب على كل مخطط أن يضع في حسبانه توقع أحداث طارئة قد تكون غير محسوبة، وعليه أن يعالجها بحكمة وهدوء بما لا يغير بوصلة الحدث واتجاهه، فإن استوعبت الخطة بمرونتها الأحداث الطارئة؛ فإن شخصية القائد وحنكته كفيلة بمعالجة ما كان غير محسوبًا من الأحداث. ومن ذلك مثلاً:

- مرور خيل لقريش بقيادة خالد بن الوليد، ولما تنبه خالد بنحرك المسلمين أرسل نذيراً لقريش؛ ليستعدوا للقاء المسلمين الذين بدا عليهم سمة القتال، لكن رسول الله صلى الله عليه وسلم كيّف ذلك واستغله، بأن استقر بمن معه في مكان قبل مكة؛ فمكة هدف استراتيجي لا يجب بيانه ابتداءً. وهذا تحويل التهديد إلى فرص.
- توقف راحلة رسول الله صلى الله عليه وسلم عن المسير، وقول بعض المسلمين: (خلأت القصواء) أي تقهقرت – كحران الفرس –؛ فأجابهم صلى الله عليه وسلم معللاً ما حصل، رافعًا عن المسلمين ما يُضعف همتهم، وهنا تدخل القائد للحد من ضعف بعض أصحابه بحنكة.

- قلة ماء الشرب، وعالج رسول الله صلى الله عليه وسلم ذلك بمعجزة منه، وهذا تدخل القائد للحد من تهديد حاصل وهو نقص الماء منعًا للوقوع في عجز لا يمكن المتابعة معه.
- مجيء قوم من خزاعة وإخبارهم رسول الله صلى الله عليه وسلم؛ بأن هناك من سيقاتله ويمنعه من وصول مكة وبيتها المحرم؛ وذلك تفزيعًا وَثَنيًا لعزم المسلمين عما يريدونه ظنًا أنهم جاؤوا للقتال؛ فأخبرهم رسول الله صلى الله عليه وسلم بأنه لم يَقدم لقتال بل جاء معتمرًا وزائرًا لبيت الله. وهذا تدخل من القائد لاستيعاب ثغرة حصلت عندما أنذر جيش خالد بن الوليد قريشًا بخروج المسلمين نحو مكة، وبذلك حول القائد التهديد إلى فرصة، فهو وأصحابه جاؤوا معتمرين ودليلهم؛ ما معهم من هديٍ.

ولم يترك قول قوم خزاعة يهددونهم؛ بل زادهم بقوله بأن عدوه؛ أي قريشًا قد أنهكتها الحرب وأضرت بها، وبذلك استخدم القائد معلومات سرية يملكها؛ كقوة داخلية ليرهب به عدوه، فكانت خياراته صلى الله عليه وسلم كالآتي: إما أن تخلي قريش سبيله ليعتمر (تحقيق الهدف المرحلي الأول) أو أن يؤجلوا ذلك (تحقيق الهدف المرحلي الثاني) وبذلك ترك رسول الله صلى الله عليه وسلم مرونة للطرف الآخر بالتخلي عن هدف مرحلي، مُخفيًا هدفه الإستراتيجي بعيداً عن مخيلتهم، ثم زاد خيار الحرب؛ ليضيف للحوار قوة عسكرية، فالمنطق وحده لا يفيد مع العدو، ولابد من بيان القوة حيث يجب أن تكون؛ فجمع بين الملاطفة والحزم؛ بعدما أعلم القوم المحاورين بأهمية ما يملكه من معلومات عن عدوه.

أحداث ومتغيرات حصلت خلال الحوار كادت أن تنقض الاتفاق، بل وتشعل حربًا:

- انتقل المفاوض الوسيط إلى الطرف الآخر وهم قريش، وخيّرهم بأن لديه ما يقوله؛ فإن شاؤوا قال، وإن شاؤوا سكت عن القول، وهذه مهارة حوارية في الوسيط ليثبت قدراته وليشوق الطرف الآخر بعدما أحس بقدرات الطرف الأول وعزيمته، فبادره سفهاء قريش بالخيار الثاني وهذه حال الحمقى في كل زمان ومكان، لكن حكماء الرأي فيهم طلبوا الخيار الأول.
- قدم المفاوض نفسه مبتدأ الكلام عن نفسه ليُعرف بمكانته، ثم بصلة القربى المعنوية بينه وبين قريش، ثم أخبرهم بعرض خطة رشد يحملها لهم من الطرف الآخر؛ أي من رسول الله صلى الله عليه وسلم. فقبلوا وساطته.

- عاد المفاوض الوسيط إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم، وناشده بالحمية مذكراً رسول الله صلى الله عليه وسلم بقومه وبشيم العرب، كما هدده بشكل مبطن بأنه إن اختار الاجتياح فإن فراسته – أي الوسيط – تُنبؤه بانشقاق أصحابه عنه وفرارهم منه، وبذلك فإن المفاوض الوسيط لمّح لغرضه مستخدمًا الملاطفة والحزم أيضًا.
- فإذ بجواب فظ من أقرب أصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم يفاجئ المفاوض المحاور بعدما تعرّض لنقطة ضعف (حسبما يرتأيه) قد تصيب رسول الله صلى الله عليه وسلم، وعلى الرغم من أن أبي بكر رضي الله عنه معروف بالوداعة والسماحة والهدوء، لكنه أثبت أنه أسدٌ في المواقف التي يجب أن يكون فيها كذلك؛ فبينّ للوسيط أنهم أصحابٌ لا يتركون رسول الله صلى الله عليه وسلم ولا يدعونه، ولما طلب الوسيط معرفة المتكلم عرفه وعرف قدره، وهذا ذكاء يُشهد للوسيط بعدم تسرعه في الرد ونقض الاتفاق، فذكّر أبا بكر رضي الله عنه بأنه رضي الله عنه صاحب يدٍ بيضاء عليه، لذلك لم يجبه، وهذا موقف أضفى على المفاوضات بُعداً متوازنًا، حيث عاد الوسيط خطوة إلى الوراء.
- إلا أن الوسيط عاد للتأثير على المفاوضات بطريقة فظة بالاعتداء على رأس القوم بدل أصحابه مُصعّداً آلياته التفاوضية، فقام بما لا يليق بالوسيط القيام به، فمد يده على لحية رسول الله صلى الله عليه وسلم الشريفة، فما كان من أحد أصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم إلا أن أهوى يده بنعل السيف، وخاطبه بفظاظة ليُبعد يده عن لحية رسول الله صلى الله عليه وسلم؛ فاستخدم الوسيط دهاءه ثانية، وطلب معرفة الفاعل، فعرفه، وسرعان ما ذكّره بما كان عليه في الجاهلية من الغدر محاولاً الطعن فيه وللتقليل من شأنه، فسارع رسول الله صلى الله عليه وسلم بتغليب الحكمة؛ بقوله: إنه قبل منه إسلامه، وليس له في ماله شيء؛ فذلك فعل فعله في الجاهلية.
- ثم بعد محاولة المحاور اختراق العلاقة بين رسول الله صلى الله عليه وسلم وأصحابه، ومحاولة هز كيان رسول الله صلى الله عليه وسلم، جعل يرمق تصرف أصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم، ويتفحص وجوههم لعله يفهم ما يدور حوله، فهو حذق تلقى السباب والشتم وسكت عنه، وحاول مد يده فكِيل له بالحزم والشدة؛ فقد رأى ما لم يعتد رؤيته، وهو السياسي المخضرم الذي جال البلاد العظيمة وقابل زعمائها الأشداء الذين تدين لهم الأرض وتهابهم. وها هو يصف المنظر

الذي أخذ منه كل مأخذ بنفسه:

إن القائد الذي يحاوره، قائد يحبه أتباعه ويتفانون في حبه ويلتصقون به فيقتتلون على خدمته ويأخذون ما يبدر منه بلهفة شديدة، لكنهم يحافظون على أدبهم معه؛ فلا يرفعون صوتهم عنده، ولا يُحدّون نظرهم إليه.

بينما القادة الذين عرفهم في جولاته؛ يحرسهم حرّاسٌ غلاظ، يسدون أبوابهم أمام الناس، ويقبعون في حصون تمنعهم، ويفرضون الاحترام بقدر ما يزرعون الخوف في أتباعهم.

- ثم انتقل الوسيط للطرف الآخر ليروي شهادته، وليصف عجبه بما رآه وشاهده، وبذلك أثّر بقريش دون أن يدري، بعدما عجز عن التأثير بالطرف الآخر، ثم عرض عليهم خطة عرضها رسول الله صلى الله عليه وسلم عليه سماها عروة بن مسعود بـ **خطة رشد**؛ فكأن قريشًا تَجَهزت نفسيًا لقبول الخطة، خاصة عندما أشار الوسيط المفاوض عليهم أن يقبلوها، ثم طلب التفويض بإتمام الصلح، فأذنوا له.

مرحلة كتابة الصلح: وهي الجزء الصعب من عملية التفاوض:

- عاد الوسيط المفاوض لبدء التفاوض الذي أُذن له به، فلما قَدم على رسول الله صلى الله عليه وسلم، سارع رسول الله صلى الله عليه وسلم بإعلام أصحابه بفراسته وعلمه بالأشخاص ومقاماتهم، بأن هذا؛ أي الوسيط هو فلان، وهذه سِمة ذكية بأن يعرف القائد محاوره قبل أن يُعرِّف الآخر بنفسه مما يزرع فيه عزةً تجعله يحترم مفاوضه ويُجلّه، وزاد رسول الله صلى الله عليه وسلم بأن قال لأصحابه: هو من قوم يعظمون البُدن أي الأضاحي السمينة المكتنزة، فقال: ابعثوها له، وكان المسلمون قد قدموا للعمرة وجاؤوا معهم بأضاحيهم ليتقربوا بها إلى الله عند البيت الحرام. أما المسلمون فاستقبلوا الوسيط المفاوض بالتلبية، فوقع ذلك في قلب الوسيط مما جعل قلبه يلين، حتى قال: لا ينبغي لهؤلاء أن يُصدوا عن البيت، فعاد إلى قريش ناصحًا إياهم بألا يمنعوهم.
- سرعان ما تقدم للمفاوضة وسيط آخر ليتسلم زمام التفاوض، فلما رآه رسول الله صلى الله عليه وسلم عرفه وأخبر أصحابه بأنه رجل فاجر، وبينما كان يكلمه، وصل محاور آخر اسمه سهيل، فعرفه رسول الله صلى الله عليه وسلم، واستشبر خيرًا من اسمه؛ قائلاً لأصحابه: لقد سُهل لكم من أمركم.

- ابتدر سهيلاً طالبًا البدء بكتابة شروط التفاوض بين رسول الله صلى الله عليه وسلم وقريش.
- طلب رسول الله صلى الله عليه وسلم بدء الاتفاق بالبسلمة، فاعترض الوسيط المفاوض وطلب تعديلها بما يعتقده الفريقان المتفاوضان معًا حتى لا يكون غلبة لطرف على آخر، وهذه حنكة، لكن المسلمين كرهوا ذلك، إلا أن حنكة رسول الله صلى الله عليه وسلم السياسية كانت بعيدة المدى، فقبل ما طرحه الوسيط، طالما أنه لا يخالف شرع الله تعالى.
- طلب رسول الله صلى الله عليه وسلم أن يُكتب: (هذا ما قاضى عليه محمد رسول الله)؛ فاعترض الوسيط بذكائه وحنكته طالبًا كتابة اسم (محمد بن عبد الله) بدل ذلك، معللاً قوله بأن ذلك يتماشى وما يعتقده. تدخل رسول الله صلى الله عليه وسلم موضحًا أنه رسول الله ولو كذّبت قريش ذلك، وقبل رسول الله صلى الله عليه وسلم بطرح الوسيط لأنه فعلاً محمد بن عبد الله، كيلا يعرقل الاتفاق أية إشكاليات يمكن تجاوزها، فالأمر جلل والغاية عظيمة ولا ينبغي تعطيل هدف استراتيجي بإنجاز مرحلي تكتيكي.
- صرح رسول الله صلى الله عليه وسلم عن الهدف الاستراتيجي لخطته وهو: تعظيم حرمات الله تعالى. ثم حدد أهم بنود الاتفاق؛ بالتخلية بين المسلمين وبين البيت ليطوّفوا به. لكن المفاوض الوسيط أجّل ذلك لعام قادم حتى لا يُقال أن قريشًا مورس عليها ضغط فقُهرت، ثم أضاف شرطًا رأى المسلمون فيه نقيصة، بأن يمنع على المسلمين استقبال أحد من قريش إلى صفهم خلال تلك الفترة، وكأن الوسيط يسجل نقاطًا يعدها مكاسب، وهي في حقيقة الأمر مكاسب تكتيكية محدودة قصيرة المدى.
- في هذه الأثناء، دخل على المسلمين رجل مقيد هارب من مكة، فسارع الوسيط بالتهديد بوقف الاتفاق إن لم يتم إعادة هذا الرجل لقريش، فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم: لكننا لم نوقع الاتفاق بعد، فأصرّ المفاوض الوسيط على رفض طلب رسول الله صلى الله عليه وسلم في قبول الرجل، على الرغم من تذكير الرجل الهارب المسلمين بما لاقاه من تعذيب من قريش، لكن الاتفاق الذي يخفي هدفًا استراتيجيًا لابد له من تجاوز إشكاليات نقضه. وبذلك سجل الوسيط مزيداً من النقاط.

- اعترض عمر رضي الله عنه وخاطب رسول الله صلى الله عليه وسلم بذلك، لكن رسول الله صلى الله عليه وسلم أعلمه بأنه نبي الله ولن يعصي الله تعالى، وكأنه يقول له أن الاتفاق يرعاه الله تعالى، لكن الغضب غيّب هذه الحقيقة عن عمر رضي الله عنه وعن غيره من المسلمين، فأخذ الغضب من المسلمين مأخذه، حتى وصل بعمر رضي الله عنه أن خاطب أبا بكر رضي الله عنه بذلك؛ فأجابه: بمقولة رسول الله صلى الله عليه وسلم ذاتها، وأضاف مخاطبًا عمر رضي الله عنه: أن يستمسك بغرزه وأن يقف عند حده.

- إن قول الله تعالى: **إِذْ جَعَلَ الَّذِينَ كَفَرُوا فِي قُلُوبِهِمُ الْحَمِيَّةَ حَمِيَّةَ الْجَاهِلِيَّةِ فَأَنزَلَ اللَّهُ سَكِينَتَهُ عَلَىٰ رَسُولِهِ وَعَلَى الْمُؤْمِنِينَ وَأَلْزَمَهُمْ كَلِمَةَ التَّقْوَىٰ وَكَانُوا أَحَقَّ بِهَا وَأَهْلَهَا ۚ وَكَانَ اللَّهُ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمًا** (الفتح: ٢٦)؛ يقصد بالحمية؛ الأنفة والغضب، وذلك حين صدوا رسول الله صلى الله عليه وسلم وأصحابه عن البيت، ومنعوا الهدي محله، ولم يقرّوا ببسم الله الرحمن الرحيم، وأنكروا أن يكون محمداً رسول الله. وقيل: قال أهل مكة قد قتلوا أبناءنا وإخواننا ثم يدخلون علينا، فتحدث العرب أنهم دخلوا علينا رغمًا منا واللات والعزى لا يدخلونها علينا فكانت هذه (**حَمِيَّةَ الْجَاهِلِيَّةِ**) التي دخلت قلوبهم، (**فَأَنزَلَ اللَّهُ سَكِينَتَهُ عَلَىٰ رَسُولِهِ وَعَلَى الْمُؤْمِنِينَ**)؛ حتى لا يَدخلهم ما دَخلهم في الحمية فيعصون الله في قتالهم[1]. وهذا الملمح الذي أشار له صلى الله عليه وسلم فهمه أبا بكر وغاب عن عمر رضي الله عنهم؛ فالأمر جلل بحق.

مرحلة ما بعد الاتفاق: وهي مرحلة ما بعد الانتهاء من كتابة الصلح حيث إقناع الأصحاب لتثمر الخطة وليعطوها ولاءهم:

- طلب رسول الله صلى الله عليه وسلم من أصحابه أن ينحروا ويحلقوا، فلم يفعلوا، فدخل رسول الله صلى الله عليه وسلم على أم المؤمنين أم سلمة، وأخبرها أمر المسلمين وخوفه من غضب الله تعالى إن عصوه، فكان لها الرأي الراجح في القضية، لتظهر أهمية المرأة في الإسلام، ودورها الحيوي ورأيها الصائب الراجح في أصعب اتفاق مصيري يتعلق بأمة الإسلام، فأشارت رضي الله

[1] علاء الدين علي بن محمد بن إبراهيم البغدادي الشهير بالخازن، المتوفى سنة ٧٢٥ هـ، لباب التأويل في معاني التنزيل تفسير الخازن، سورة الفتح الآيتان ٢٦ و٢٧، ج ٥، ص ٥٠٨.

عنها على رسول الله صلى الله عليه وسلم بأن يخرج إليهم، وأن يفعل ذلك مبتدئًا بنفسه فعلاً لا قولاً؛ فخرج رسول الله صلى الله عليه وسلم وفعل ذلك، ففعل المسلمون فعله كسنة سلوكية؛ فاقتدوا بفعل رسول الله صلى الله عليه وسلم.

- نجم عن الاتفاق إشكاليات تم حلها بضوء اتفاق الصلح المبرم، من ذلك المؤمنات المهاجرات من مكة إلى المدينة، ومن ذلك زوجات المسلمين الباقيات على كفرهن بمكة. ومن ذلك أيضا لحاق أحد المسلمين من قريش بالمسلمين ورده، لكنه اشتبك مع كفار قريش وفر منهم، ثم لحق بالمسلمين فأعادوه تطبيقًا للاتفاق. فما كان من الفارين إلا أن شكلوا عصابة أقضت مضجع قريش باعتراض قوافلهم وأخذ أموالهم وقتلهم، فوصل الأمر بقريش لتسأل رسول الله صلى الله عليه وسلم ليعالج أمرهم، فأمّنهم رسول الله صلى الله عليه وسلم، وأعادهم إليه.

لقد أثبتت الخطة مرونة استوعبت فيها كل المتغيرات التي حدثت خلال التنفيذ، وتم التعبير عنها كميًا، بسنة قادمة وهذا معيار كمي يُعمل به، وقد تم التنفيذ فعلاً كما هو مرسوم بالخطة وسارت الأمور على ما يرام.

لقد أضحى الحال على اتفاق بين فريقين ندّين، فريق إيمان وفريق كفر، نجم عنه اعتراف فريق الكفر بفريق الإيمان، مقرًّا بحقوقهم، وسمح فريق الكفر لفريق الإيمان بالعمرة وزيارة البيت العتيق بعد عام.

لقد كان هذا الاتفاق تمهيداً لدخول المسلمين مكة حاجّين فاتحين، ثم مؤسسين لدولة الإسلام، وطاردين الشرك من جزيرة العرب إلى يوم القيامة. وهذا ما غاب عن أئمة الكفر وعباقرتهم، لقد سارت خطة الرشد كما أراد واضعها ومهندسها، برعاية إلهية رحيمة الذي أنزل سكينته على رسوله والمؤمنين كما في الآية.

لقد فسر رسول الله صلى الله عليه وسلم قول الله تعالى: **إِنَّا فَتَحْنَا لَكَ فَتْحًا مُّبِينًا** (الفتح: ١) بأن الفتح هو صلح الحديبية، وأنه مقدمة الفتح الكبير والنهائي، فكان تحقيق الرؤية في العام التالي لصلح الحديبية. وكان تحقيق الهدف الاستراتيجي لخطة الرشد بإقامة أمة الإسلام حتى قيام الساعة، أمة تأمر بالمعروف وتنهى عن المنكر، أمة لا تتوانى عن إقامة العدل فيما بينها ومع غيرها، كما حققت الخطة أهدافًا مرحلية عديدة.

التحليل الاستراتيجي لخطة الرشد:

نقاط القوة:

- ثبات رسول الله صلى الله عليه وسلم على الحق، ويقينه بالله والتوكل عليه.
- حسن التدبير والعمل.
- قيادته الفاعلة بالحب والأثرة وتربية الناس على إحقاق العدل.
- ثبات من معه وولاءهم لله ولرسوله، وبراءتهم من الشرك والكفر وأهله.

نقاط الضعف:

- ضعف الإمكانيات المادية للمسلمين.
- وجودهم الجغرافي المقصور على المدينة المنورة.

التهديدات:

- انتشار الظلم وأكل الحقوق، وهذا ما يمهد لزوال الوجود البشري لزوال إنسانيته، فأكبر الظلم هو الكفر بالله وأنعمه والإشراك به، وهذا ما كان منتشراً في أصقاع الأرض كافة، ولما وقعت به أكثر الحضارات المندرسة؛ اندثرت أغلب معارفها وعلومها.

الفرص:

- توحيد الصف، لتعزيز منعة الأمة.
- تحقيق الغاية التي لا تنتهي وهي التي أعلنها رسول الله صلى الله عليه وسلم: تعظيم حرمات الله. داخل الجزيرة العربية، ومن ثم خارجها.

نص الحديث[1]:

خَرَجَ[2] رَسولُ اللَّهِ صَلَّى اللهُ عليه وسلَّمَ زَمَنَ الحُدَيْبِيَةِ حتَّى إذَا كَانُوا ببَعْضِ الطَّرِيقِ، قالَ النبيُّ صَلَّى اللهُ عليه وسلَّمَ: إنَّ خَالِدَ بنَ الوَلِيدِ بالغَمِيمِ[3] في خَيْلٍ لِقُرَيْشٍ طَلِيعَةٌ[4]، فَخُذُوا ذَاتَ اليَمِينِ فَوَاللَّهِ ما شَعَرَ بهِمْ خَالِدٌ حتَّى إذَا هُمْ بقَتَرَةِ[5] الجَيْشِ،

---

[1] ذكر البخاري في صحيحه حديثًا رواه المسور بن مخرمة ومروان بن الحكم (رقم ٢٧٣١)؛ فيه أحداث صلح الحديبية، الذي عُقد قربَ مكة في منطقة الحديبية والتي تُسمى اليوم الشميسي، في شهر ذي القعدة من العام السادس للهجرة بين المسلمين وبين مشركي قريش، وبمقتضاه عقدت هدنة بين الطرفين مدتها عشر سنوات، ثم نُقضت نتيجة اعتداء بني بكر على بني خزاعة.

[2] تفسير غريب ما في الصحيحين، لأبي عبد الله محمد بن فتوح الأندلسي الحميدي، ص ٢٢٤.

[3] اسم مكان.

[4] مقدمة الجيش.

[5] الغبار الساطع معه سواد.

فَانْطَلَقَ يَرْكُضُ نَذِيراً لِقُرَيْشٍ.

وسَارَ النبيُّ صَلَّى اللَّهُ عليه وسلَّمَ حتَّى إذَا كانَ بالثَّنِيَّةِ الَّتي يُهْبَطُ عليهم منها بَرَكَتْ به رَاحِلَتُهُ، فَقالَ النَّاسُ: حَلْ حَلْ[1] فألَحَّتْ، فَقالوا: خَلأَتِ[2] القَصْوَاءُ[3]، خَلأَتِ القَصْوَاءُ، فَقالَ النبيُّ صَلَّى اللَّهُ عليه وسلَّمَ: ما خَلأَتِ القَصْوَاءُ، وما ذَاكَ لَهَا بخُلُقٍ، ولَكِنْ حَبَسَهَا حَابِسُ الفِيلِ، ثُمَّ قالَ: والذي نَفْسِي بيَدِهِ، لا يَسْأَلُونِي خُطَّةً يُعَظِّمُونَ فِيهَا حُرُمَاتِ اللَّهِ إلَّا أعْطَيْتُهُمْ إيَّاهَا، ثُمَّ زَجَرَهَا فَوَثَبَتْ.

قالَ: فَعَدَلَ عنْهمْ حتَّى نَزَلَ بأَقْصَى الحُدَيْبِيَةِ[4] علَى ثَمَدٍ[5] قَلِيلِ المَاءِ، يَتَبَرَّضُهُ[6] النَّاسُ تَبَرُّضًا، فَلَمْ يُلَبِّثْهُ النَّاسُ حتَّى نَزَحُوهُ، وشُكِيَ إلى رَسولِ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عليه وسلَّمَ العَطَشُ، فَانْتَزَعَ سَهْمًا مِن كِنَانَتِهِ، ثُمَّ أمَرَهُمْ أنْ يَجْعَلُوهُ فِيهِ، فَوَاللَّهِ ما زَالَ يَجِيشُ[7] لهمْ بالرِّيِّ حتَّى صَدَرُوا عنْه.

فَبيْنَما هُمْ كَذلكَ إذْ جَاءَ بُدَيْلُ بنُ ورْقَاءَ الخُزَاعِيُّ في نَفَرٍ مِن قَوْمِهِ مِن خُزَاعَةَ، وكَانُوا عَيْبَةَ[8] نُصْحِ رَسولِ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عليه وسلَّمَ مِن أهْلِ تِهَامَةَ، فَقالَ: إنِّي تَرَكْتُ كَعْبَ بنَ لُؤَيٍّ، وعَامِرَ بنَ لُؤَيٍّ نَزَلُوا أعْدَادَ مِيَاهِ الحُدَيْبِيَةِ، ومعهُمُ العُوذُ[9] المَطَافِيلُ[10]، وهُمْ مُقَاتِلُوكَ وصَادُّوكَ عَنِ البَيْتِ، فَقالَ رَسولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عليه وسلَّمَ: إنَّا لَمْ نَجِئْ لِقِتَالِ أحَدٍ، ولَكِنَّا جِئْنَا مُعْتَمِرِينَ، وإنَّ قُرَيْشًا قدْ نَهِكَتْهُمُ[11] الحَرْبُ، وأَضَرَّتْ بهِمْ، فإنْ شَاؤُوا مَادَدْتُهُمْ مُدَّةً، ويُخَلُّوا بَيْنِي وبيْنَ النَّاسِ، فإنْ أظْهَرْ: فإنْ شَاؤُوا أنْ يَدْخُلُوا فيما دَخَلَ فيه النَّاسُ فَعَلُوا، وإلَّا فقَدْ جَمُّوا[12]، وإنْ هُمْ أبَوْا، فَوَالَّذِي نَفْسِي بيَدِهِ لَأُقَاتِلَنَّهُمْ علَى أمْرِي هذا حتَّى تَنْفَرِدَ سَالِفَتِي[13]، ولَيُنْفِذَنَّ اللَّهُ أمْرَهُ.

فَقالَ بُدَيْلٌ: سَأُبَلِّغُهُمْ ما تَقُولُ، قالَ: فَانْطَلَقَ حتَّى أتَى قُرَيْشًا، قالَ: إنَّا قدْ جِئْنَاكُمْ مِن هذا الرَّجُلِ وسَمِعْنَاهُ يقولُ قَوْلاً، فإنْ شِئْتُمْ أنْ نَعْرِضَهُ علَيْكُم فَعَلْنَا، فَقالَ سُفَهَاؤُهُمْ: لا حَاجَةَ لَنَا أنْ تُخْبِرَنَا عنْه بشيءٍ، وقالَ ذَوُو الرَّأْيِ منهمْ: هَاتِ ما سَمِعْتَهُ يقولُ، قالَ: سَمِعْتُهُ يقولُ كَذَا وكَذَا، فَحَدَّثَهُمْ بما قالَ النبيُّ صَلَّى اللَّهُ عليه وسلَّمَ، فَقَامَ عُرْوَةُ بنُ مَسْعُودٍ فَقالَ: أيْ قَوْمِ، ألَسْتُمْ بالوَالِدِ؟ قالوا: بَلَى، قالَ: أوَلَسْتُ بالوَلَدِ؟ قالوا: بَلَى، قالَ: فَهلْ تَتَّهِمُونِي؟ قالوا: لا، قالَ: ألَسْتُمْ تَعْلَمُونَ أنِّي اسْتَنْفَرْتُ أهْلَ عُكَاظَ[14]، فَلَمَّا بَلَّحُوا[15] عَلَيَّ جِئْتُكُمْ بأَهْلِي ووَلَدِي ومَن أطَاعَنِي؟ قالوا: بَلَى، قالَ: فإنَّ هذا قدْ عَرَضَ لَكُمْ خُطَّةَ رُشْدٍ، اقْبَلُوهَا ودَعُونِي آتِيهِ، قالوا: ائْتِهِ، فأتَاهُ.

فَجَعَلَ يُكَلِّمُ النبيَّ صَلَّى اللَّهُ عليه وسلَّمَ، فَقالَ النبيُّ صَلَّى اللَّهُ عليه وسلَّمَ نَحْوًا مِن قَوْلِهِ لِبُدَيْلٍ، فَقالَ عُرْوَةُ عِنْدَ ذلكَ: أيْ مُحَمَّدُ أرَأَيْتَ إنِ اسْتَأْصَلْتَ أمْرَ قَوْمِكَ، هلْ سَمِعْتَ بأَحَدٍ مِنَ العَرَبِ اجْتَاحَ[16] أهْلَهُ قَبْلَكَ، وإنْ تَكُنِ الأُخْرَى، فإنِّي واللَّهِ لَأَرَى وُجُوهًا، وإنِّي لَأَرَى أوْشَابًا[17] مِنَ النَّاسِ خَلِيقًا أنْ يَفِرُّوا ويَدَعُوكَ، فَقالَ له أبو بَكْرٍ الصِّدِّيقُ: امْصُصْ بِبَظْرِ اللَّاتِ[18]،

---

[1] يقال حل حل زجرا للناقة.
[2] توقفت عن المشي وتقهقرت كحران الفرس.
[3] اسم ناقة رسول الله صلى الله عليه وسلم، والقصوا هي المشقوقة أذنها.
[4] اسم قرية سميت ببشر هناك.
[5] الماء القليل.
[6] جمع الماء بالكفين لقلته.
[7] جاشت البئر بالماء إذا ارتفعت وفاضت.
[8] موضع سره وثقته.
[9] النوق الحديثات النتاج ذات اللبن.
[10] النوق الأمهات التي معها أطفالها.
[11] أضعفت قوتهم.
[12] استراحوا من جهد القتال.
[13] حتى تنفصل رقبتي عن بدني.
[14] اسم سوق في الجاهلية.
[15] امتنعوا عن إجابته.
[16] أهلَكَ.
[17] أخلاطًا من الناس.
[18] شتيمة غليظة عند العرب واللات اسم صنم كانوا يعبدونه.

أنَحْنُ نَفِرُّ عنْه ونَدَعُهُ؟ فَقالَ: مَن ذَا؟ قالوا: أبو بَكْرٍ، قالَ: أما والذي نَفْسِي بيَدِه، لَوْلاَ يَدٌ كَانَتْ لكَ عندي لَمْ أجْزِكَ بهَا لأَجَبْتُكَ، قالَ: وجَعَلَ يُكَلِّمُ النبيَّ صَلَّى اللّٰهُ عليه وسلَّمَ، فَكُلَّما تَكَلَّمَ أخَذَ بلحْيَتِه، والْمُغيرَةُ بنُ شُعْبَةَ قَائِمٌ على رَأْسِ النبيِّ صَلَّى اللّٰهُ عليه وسلَّمَ، ومعهُ السَّيْفُ وعليه المِغْفَرُ، فَكُلَّما أهْوَى عُرْوَةُ بيَدِه إلى لحْيَةِ النبيِّ صَلَّى اللّٰهُ عليه وسلَّمَ ضَرَبَ يَدَهُ بنَعْلِ السَّيْفِ، وقالَ له: أخِّرْ يَدَكَ عن لحْيَةِ رَسولِ اللَّه صَلَّى اللّٰهُ عليه وسلَّمَ، فَرَفَعَ عُرْوَةُ رَأْسَهُ، فَقالَ: مَن هذا؟ قالوا: الْمُغيرَةُ بنُ شُعْبَةَ، فَقالَ: أيْ غُدَرُ[1]، ألَسْتُ أسْعَى في غَدْرَتِكَ؟ وكانَ الْمُغيرَةُ صَحِبَ قَوْمًا في الجَاهِليَّةِ فَقَتَلَهُمْ، وأخَذَ أمْوَالَهُمْ، ثُمَّ جَاءَ فأسْلَمَ، فَقالَ النبيُّ صَلَّى اللّٰهُ عليه وسلَّمَ: أمَّا الإسْلاَمَ فأقْبَلُ، وأمَّا المَالَ فَلَسْتُ منه في شيءٍ.

ثُمَّ إنَّ عُرْوَةَ جَعَلَ يَرْمُقُ[2] أصْحَابَ النبيِّ صَلَّى اللّٰهُ عليه وسلَّمَ بعَيْنَيْه، قالَ: فَوَاللَّه ما تَنَخَّمَ رَسولُ اللَّه صَلَّى اللّٰهُ عليه وسلَّمَ نُخَامَةً إلَّا وقَعَتْ في كَفِّ رَجُلٍ منهمْ، فَدَلَكَ بهَا وجْهَهُ وجِلْدَهُ، وإذَا أمَرَهُمُ ابْتَدَرُوا أمْرَهُ، وإذَا تَوَضَّأَ كَادُوا يَقْتَتِلُونَ على وضُوئِه، وإذَا تَكَلَّمَ خَفَضُوا أصْوَاتَهُمْ عِنْدَهُ، وما يُحِدُّونَ إلَيْه النَّظَرَ تَعْظِيمًا له، فَرَجَعَ عُرْوَةُ إلى أصْحَابِه، فَقالَ: أيْ قَوْمِ، واللَّه لقَدْ وفَدْتُ على المُلُوكِ، ووَفَدْتُ على قَيْصَرَ، وكِسْرَى، والنَّجَاشِيِّ، واللَّه إنْ رَأَيْتُ مَلِكًا قَطُّ يُعَظِّمُهُ أصْحَابُهُ ما يُعَظِّمُ أصْحَابُ مُحَمَّدٍ صَلَّى اللّٰهُ عليه وسلَّمَ مُحَمَّدًا، واللَّه إنْ تَنَخَّمَ نُخَامَةً إلَّا وقَعَتْ في كَفِّ رَجُلٍ منهمْ، فَدَلَكَ بهَا وجْهَهُ وجِلْدَهُ، وإذَا أمَرَهُمُ ابْتَدَرُوا أمْرَهُ، وإذَا تَوَضَّأَ كَادُوا يَقْتَتِلُونَ على وضُوئِه، وإذَا تَكَلَّمَ خَفَضُوا أصْوَاتَهُمْ عِنْدَهُ، وما يُحِدُّونَ إلَيْه النَّظَرَ تَعْظِيمًا له، وإنَّه قدْ عَرَضَ عليْكُم خُطَّةَ رُشْدٍ فَاقْبَلُوهَا، فَقالَ رَجُلٌ من بَنِي كِنَانَةَ: دَعُونِي آتِيه، فَقالوا: ائْتِه.

فَلَمَّا أشْرَفَ على النبيِّ صَلَّى اللّٰهُ عليه وسلَّمَ وأصْحَابِه، قالَ رَسولُ اللَّه صَلَّى اللّٰهُ عليه وسلَّمَ: هذا فُلاَنٌ، وهو من قَوْمٍ يُعَظِّمُونَ البُدْنَ، فَابْعَثُوهَا له فَبُعِثَتْ له، واسْتَقْبَلَهُ النَّاسُ يُلَبُّونَ، فَلَمَّا رَأَى ذلكَ قالَ: سُبْحَانَ اللَّه، ما يَنْبَغِي لهَؤُلاَءِ أنْ يُصَدُّوا عَنِ البَيْتِ، فَلَمَّا رَجَعَ إلى أصْحَابِه، قالَ: رَأَيْتُ البُدْنَ قدْ قُلِّدَتْ وأُشْعِرَتْ، فَما أرَى أنْ يُصَدُّوا عَنِ البَيْتِ.

فَقَامَ رَجُلٌ منهمْ يُقَالُ له مِكْرَزُ بنُ حَفْصٍ، فَقالَ: دَعُونِي آتِيه، فَقالوا: ائْتِه، فَلَمَّا أشْرَفَ عليهم، قالَ النبيُّ صَلَّى اللّٰهُ عليه وسلَّمَ: هذا مِكْرَزٌ، وهو رَجُلٌ فَاجِرٌ، فَجَعَلَ يُكَلِّمُ النبيَّ صَلَّى اللّٰهُ عليه وسلَّمَ.

فَبيْنَما هو يُكَلِّمُهُ إذْ جَاءَ سُهَيْلُ بنُ عَمْرٍو، قالَ مَعْمَرٌ: فأخْبَرَنِي أيُّوبُ، عن عِكْرِمَةَ أنَّه لَمَّا جَاءَ سُهَيْلُ بنُ عَمْرٍو، قالَ النبيُّ صَلَّى اللّٰهُ عليه وسلَّمَ: لقَدْ سَهُلَ لَكُمْ من أمْرِكُمْ.

قالَ مَعْمَرٌ: قالَ الزُّهْرِيُّ في حَديثِه: فَجَاءَ سُهَيْلُ بنُ عَمْرٍو فَقالَ: هَاتِ اكْتُبْ بيْنَنَا وبيْنَكُمْ كِتَابًا فَدَعَا النبيُّ صَلَّى اللّٰهُ عليه وسلَّمَ الكَاتِبَ، فَقالَ النبيُّ صَلَّى اللّٰهُ عليه وسلَّمَ: بسْمِ اللَّه الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ، قالَ سُهَيْلٌ: أمَّا الرَّحْمَنُ، فَوَاللَّه ما أدْرِي ما هو ولَكِنِ اكْتُبْ باسْمِكَ اللَّهُمَّ كما كُنْتَ تَكْتُبُ، فَقالَ الْمُسْلِمُونَ: واللَّه لا نَكْتُبُهَا إلَّا بسْمِ اللَّه الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ، فَقالَ النبيُّ صَلَّى اللّٰهُ عليه وسلَّمَ: اكْتُبْ باسْمِكَ اللَّهُمَّ ثُمَّ قالَ: هذا ما قَاضَى عليه مُحَمَّدٌ رَسولُ اللَّه، فَقالَ سُهَيْلٌ: واللَّه لو كُنَّا نَعْلَمُ أنَّكَ رَسولُ اللَّه ما صَدَدْنَاكَ عَنِ البَيْتِ، ولاَ قَاتَلْنَاكَ، ولَكِنِ اكْتُبْ مُحَمَّدُ بنُ عبد اللَّه، فَقالَ النبيُّ صَلَّى اللّٰهُ عليه وسلَّمَ: واللَّه إنِّي لَرَسولُ اللَّه، وإنْ كَذَّبْتُمُونِي، اكْتُبْ مُحَمَّدُ بنُ عبد اللَّه – قالَ الزُّهْرِيُّ: وذلكَ لقَوْلِه: لا يَسْأَلُونِي خُطَّةً يُعَظِّمُونَ فيهَا حُرُمَاتِ اللَّه إلَّا أعْطَيْتُهُمْ إيَّاهَا.

فَقالَ له النبيُّ صَلَّى اللّٰهُ عليه وسلَّمَ: على أنْ تُخَلُّوا بيْنَنَا وبينَ البَيْتِ، فَنَطُوفَ به، فَقالَ سُهَيْلٌ: واللَّه لا تَتَحَدَّثُ العَرَبُ أنَّا أُخِذْنَا ضُغْطَةً[3]، ولَكِنْ ذلكَ منَ العَامِ الْمُقْبِلِ، فَكَتَبَ، فَقالَ سُهَيْلٌ: وعلى أنَّه لا يَأْتِيكَ مِنَّا رَجُلٌ وإنْ كانَ على دِينِكَ إلَّا رَدَدْتَهُ إلَيْنَا، قالَ الْمُسْلِمُونَ: سُبْحَانَ اللَّه، كيفَ يُرَدُّ إلى الْمُشْرِكِينَ وقدْ جَاءَ مُسْلِمًا؟

فَبيْنَما هُمْ كَذلكَ إذْ دَخَلَ أبو جَنْدَلِ بنُ سُهَيْلِ بنِ عَمْرٍو يَرْسُفُ في قُيُودِه، وقدْ خَرَجَ من أسْفَلِ مَكَّةَ حتَّى رَمَى بنَفْسِه بيْنَ أظْهُرِ الْمُسْلِمِينَ، فَقالَ سُهَيْلٌ: هذا يا مُحَمَّدُ أوَّلُ ما أُقَاضِيكَ عليه أنْ تَرُدَّهُ إلَيَّ، فَقالَ النبيُّ صَلَّى اللّٰهُ عليه وسلَّمَ: إنَّا لَمْ نَقْضِ الكِتَابَ بَعْدُ، قالَ: فَوَاللَّه إذًا لَمْ أُصَالِحْكَ على شيءٍ أبَدًا، قالَ النبيُّ صَلَّى اللّٰهُ عليه وسلَّمَ: فأجِزْهُ لِي، قالَ: ما أنَا بمُجِيزِه لَكَ، قالَ: بَلَى فَافْعَلْ، قالَ: ما أنَا بفَاعِلٍ، قالَ مِكْرَزٌ: بَلْ قدْ أجَزْنَاهُ[4] لَكَ، قالَ أبو جَنْدَلٍ: أيْ مَعْشَرَ الْمُسْلِمِينَ، أُرَدُّ إلى

---

[1] من فعاله كلها غدر.
[2] يلحظ.
[3] قهرا.
[4] في كف الأذى عنه فقط.

المُشْرِكِينَ وقدْ جِئْتُ مُسْلِمًا، ألاَ تَرَوْنَ ما قدْ لَقِيتُ؟ وكانَ قدْ عُذِّبَ عَذَابًا شَدِيدًا في اللَّه.

قالَ: فَقالَ عُمَرُ بنُ الخَطَّاب: فأتَيْتُ نَبِيَّ اللَّه صَلَّى اللهُ عليه وسلَّمَ فَقُلتُ: ألَسْتَ نَبِيَّ اللَّه حَقًّا، قالَ: بَلَى، قُلتُ: ألَسْنَا على الحَقِّ، وعَدُوُّنَا على البَاطِلِ، قالَ: بَلَى، قُلتُ: فَلِمَ نُعْطِي الدَّنِيَّةَ في دِينِنَا إذًا؟ قالَ: إنِّي رَسولُ اللَّه، ولَسْتُ أعْصِيه، وهو نَاصِرِي، قُلتُ: أوَليسَ كُنْتَ تُحَدِّثُنَا أنَّا سَنَأْتي البَيْتَ فَنَطُوفُ به؟ قالَ: بَلَى، فأخْبَرْتُكَ أنَّا نَأْتيه العَامَ، قالَ: قُلتُ: لاَ، قالَ: فإنَّكَ آتيه ومُطَوِّفٌ به، قالَ: فأتَيْتُ أبَا بَكْرٍ فَقُلتُ: يا أبَا بَكْرٍ أليسَ هذا نَبِيَّ اللَّه حَقًّا؟ قالَ: بَلَى، قُلتُ: ألَسْنَا على الحَقِّ وعَدُوُّنَا على البَاطِلِ؟ قالَ: بَلَى، قُلتُ: فَلِمَ نُعْطِي الدَّنِيَّةَ في دِينِنَا إذًا؟ قالَ: أيُّها الرَّجُلُ إنَّه لَرَسولُ اللَّه صَلَّى اللهُ عليه وسلَّمَ، وليسَ يَعْصِي رَبَّهُ، وهو نَاصِرُهُ، فَاسْتَمْسِكْ بغَرْزِه، فَوَاللَّه إنَّه على الحَقِّ، قُلتُ: أليسَ كانَ يُحَدِّثُنَا أنَّا سَنَأْتي البَيْتَ ونَطُوفُ به؟ قالَ: بَلَى، أفَأخْبَرَكَ أنَّكَ تَأْتيه العَامَ؟ قُلتُ: لاَ، قالَ: فإنَّكَ آتيه ومُطَوِّفٌ به. قالَ الزُّهْرِيُّ: قالَ عُمَرُ: فَعَمِلْتُ لِذلكَ أعْمَالاً[1].

قالَ: فَلَمَّا فَرَغَ مِن قَضِيَّةِ الكِتَابِ، قالَ رَسولُ اللَّه صَلَّى اللهُ عليه وسلَّمَ لأصْحَابِه: قُومُوا فَانْحَرُوا ثُمَّ احْلِقُوا، قالَ: فَوَاللَّه ما قَامَ منهمْ رَجُلٌ حتَّى قالَ ذلكَ ثَلاَثَ مَرَّاتٍ، فَلَمَّا لَمْ يَقُمْ منهمْ أحَدٌ دَخَلَ على أُمِّ سَلَمَةَ، فَذَكَرَ لَهَا ما لَقِيَ مِنَ النَّاسِ، فَقالَتْ أُمُّ سَلَمَةَ: يا نَبِيَّ اللَّه، أتُحِبُّ ذلكَ، اخْرُجْ ثُمَّ لا تُكَلِّمْ أحَدًا منهمْ كَلِمَةً، حتَّى تَنْحَرَ بُدْنَكَ، وتَدْعُوَ حَالِقَكَ فَيَحْلِقَكَ، فَخَرَجَ فَلَمْ يُكَلِّمْ أحَدًا منهمْ حتَّى فَعَلَ ذلكَ نَحَرَ بُدْنَهُ، ودَعَا حَالِقَهُ فَحَلَقَهُ، فَلَمَّا رَأَوْا ذلكَ قَامُوا، فَنَحَرُوا وجَعَلَ بَعْضُهُمْ يَحْلِقُ بَعْضًا حتَّى كَادَ بَعْضُهُمْ يَقْتُلُ بَعْضًا غَمًّا.

ثُمَّ جَاءَهُ نِسْوَةٌ مُؤْمِنَاتٌ فأنْزَلَ اللَّهُ تَعَالَى: يَا أيُّها الَّذِينَ آمَنُوا إذَا جَاءَكُمُ الْمُؤْمِنَاتُ مُهَاجِرَاتٍ فَامْتَحِنُوهُنَّ [الممتحنة: ١٠] حتَّى بَلَغَ بعصَمِ الكَوَافِرِ فَطَلَّقَ عُمَرُ يَومَئذٍ امْرَأتَيْنِ، كَانَتَا له في الشِّرْكِ فَتَزَوَّجَ إحْدَاهُما مُعَاوِيَةُ بنُ أبِي سُفْيَانَ، والأُخْرَى صَفْوَانُ بنُ أُمَيَّةَ.

ثُمَّ رَجَعَ النبيُّ صَلَّى اللهُ عليه وسلَّمَ إلى المَدِينَة، فَجَاءَهُ أبو بَصِيرٍ رَجُلٌ من قُرَيْشٍ وهو مُسْلِمٌ، فأرْسَلُوا في طَلَبِه رَجُلَيْنِ، فَقالوا: العَهْدَ الذي جَعَلْتَ لَنَا، فَدَفَعَهُ إلى الرَّجُلَيْنِ، فَخَرَجَا به حتَّى بَلَغَا ذَا الحُلَيْفَة، فَنَزَلُوا يَأْكُلُونَ من تَمْرٍ لهمْ، فَقالَ أبو بَصِيرٍ لأحَدِ الرَّجُلَيْنِ: واللَّه إنِّي لأرَى سَيْفَكَ هذا يا فُلاَنُ جَيِّدًا، فَاسْتَلَّهُ الآخَرُ، فَقالَ: أجَلْ، واللَّه إنَّه لَجَيِّدٌ، لقَدْ جَرَّبْتُ به، ثُمَّ جَرَّبْتُ، فَقالَ أبو بَصِيرٍ: أرِنِي أنْظُرْ إلَيْه، فأمْكَنَهُ منه، فَضَرَبَهُ حتَّى بَرَدَ[2]، وفَرَّ الآخَرُ حتَّى أتَى المَدِينَةَ، فَدَخَلَ المَسْجِدَ يَعْدُو، فَقالَ رَسولُ اللَّه صَلَّى اللهُ عليه وسلَّمَ حِينَ رَآهُ: لقَدْ رَأَى هذا ذُعْرًا فَلَمَّا انْتَهَى إلى النبيِّ صَلَّى اللهُ عليه وسلَّمَ قالَ: قُتِلَ واللَّه صَاحِبِي وإنِّي لَمَقْتُولٌ، فَجَاءَ أبو بَصِيرٍ فَقالَ: يا نَبِيَّ اللَّه، قدْ واللَّه أوْفَى اللَّهُ ذِمَّتَكَ، قدْ رَدَدْتَنِي إليهم، ثُمَّ أنْجَانِي اللَّهُ منهمْ، قالَ النبيُّ صَلَّى اللهُ عليه وسلَّمَ: ويْلُ أُمِّه مِسْعَرَ حَرْبٍ، لو كانَ له أحَدٌ فَلَمَّا سَمِعَ ذلكَ عَرَفَ أنَّه سَيَرُدُّهُ إليهم، فَخَرَجَ حتَّى أتَى سِيفَ البَحْرِ قالَ: ويَنْفَلِتُ منهمْ أبو جَنْدَلِ بنُ سُهَيْلٍ، فَلَحِقَ بأَبِي بَصِيرٍ، فَجَعَلَ لا يَخْرُجُ من قُرَيْشٍ رَجُلٌ قدْ أسْلَمَ إلَّا لَحِقَ بأَبِي بَصِيرٍ، حتَّى اجْتَمَعتْ منهمْ عِصَابَةٌ، فَوَاللَّه ما يَسْمَعُونَ بعِيرٍ خَرَجَتْ لِقُرَيْشٍ إلى الشَّأْمِ إلَّا اعْتَرَضُوا لَهَا، فَقَتَلُوهُمْ وأَخَذُوا أمْوَالَهُمْ.

فأرْسَلَتْ قُرَيْشٌ إلى النبيِّ صَلَّى اللهُ عليه وسلَّمَ تُنَاشِدُهُ باللَّه والرَّحِم، لَمَا أرْسَلَ[3]، فمَن أتَاهُ فَهو آمِنٌ، فأرْسَلَ النبيُّ صَلَّى اللهُ عليه وسلَّمَ إليهم، فأنْزَلَ اللَّهُ تَعَالَى: وَهو الذي كَفَّ أيْدِيَهُمْ عَنْكُمْ وأَيْدِيَكُمْ عنْهمْ بِبَطْنِ مَكَّةَ من بَعْدِ أنْ أظْفَرَكُمْ عليهم [الفتح: ٢٤] حتَّى بَلَغَ: الحَمِيَّةَ حَمِيَّةَ الجَاهِلِيَّة [الفتح: ٢٦] وكَانَتْ حَمِيَّتُهُمْ أنَّهُمْ لَمْ يُقِرُّوا أنَّه نَبِيُّ اللَّه، ولَمْ يُقِرُّوا بِبِسْمِ اللَّه الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ، وحَالُوا بيْنَهُمْ وبيْنَ البَيْتِ.

حماة (حماها الله) ١٩ شوال ١٤٤١ هـ الموافق ١١ حزيران/ يونيو ٢٠٢٠ م

[1] أنواع من الحسنات كالصدقة والصوم والصلاة والعتق لتذهب عني سيء ما قلته يومئذ.
[2] مات.
[3] إلا أرسل.